

استقصاء الممتنع وفلسفة الامتناع في خطب نهج البلاغة

علي نجفي ابوكي*

مرضيه سادات كدخدایی**

الملخص

استفاد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة من الفنون البيانية المتعددة لتجسيد المفاهيم المعنية حسب مقتضى الظاهر وعقلية المتلقي؛ فالامتناع من أهمّ التقنيات التي وظّفها الامام (ع) في نصه الديني؛ الفن الذي يستفاد منه حينما جزم المتكلم على أمر وقطع بانتفاء الشيء، فالأداة التي يستعين بها المتكلم لإيصال المقصود تتراوح على العموم بين (إن، لو ولولا جازمتين وغير جازمتين). وتخصّي خطب نهج البلاغة من هذا المنظور يدعوننا إلى الاعتقاد بأنّ الامتناع ببعده الحجاجي الرّصين جاء لتجسيد مختلف الموضوعات متراوحاً بين امتناع الله وامتناع الإمام وامتناع الملائكة. على ضوء حضور مكثّف لأشكال الامتناع في بنية نص نهج البلاغة ودور هذا الأسلوب البياني في الرسالة التي يريد صاحب النص إيصالها إلى القارئ وأهميته في فهم نهج البلاغة، تتعاطى هذه المقالة بمنهجها الوصفي - التحليلي موضوع الامتناع في خطب هذا الكتاب القيم. من المستنبط أنّ إشارة الإمام علي (ع) إلى عدد لا بأس به من الامتناع انتهى إلى تنوير ذهن المتلقي تجاه الموضوعات العديدة دينية كانت أو غير دينية، ثم إنّ ما

* أستاذ مشارك في قسم اللغة العربية بجامعة كاشان (الكاتب المسؤول)، najafi.ivaki@yahoo.com

** طالبة دكتوراه في قسم اللغة العربية بجامعة كاشان، marziehkadkhodaie@yahoo.com

تاريخ الوصول: ١٣٩٨/٠٨/١٥، تاريخ القبول: ١٣٩٨/١٠/٠٧

يمكن أن نستشفه من دراسة الموضوع هو أنّ الخطبة القاصعة هي أكثر خطبة توظيفاً للامتناع، هذا وإنّ الامتناع الصادر من الله تعالى مرتبط في الكثير بالأنبياء والبيت الحرام.

الكلمات الرئيسية: نهج البلاغة، الامتناع، الحجاج، الحكمة، الانتفاء.

١. المقدمة

الحق أنّ الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بعلمه الواسع وباعتباره ملازماً لنبي الإسلام صلوات الله عليه وتلميذاً ممتازاً لمدرسة الإسلام ذو معرفة خاصة بخفايا الأمور الذي قال لمتلقيه «فاسألوني قبل أن تفقدوني» وأخبرهم «وَلَوْ تَعْلَمُونَ مَا عَلَّمُ بِمَا طُوبِي عَنْكُمْ غَيْبُهُ إِذَا خَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَبْكُونَ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَتَلْتَدِمُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ وَلَتَرَكُنَّ أَمْوَالَكُمْ لَا حَارِسَ لَهَا وَلَا خَالِفَ عَلَيْهَا» (الخطبة ١١٦) كيف لا فإنه اندمج على مكنون علم وسيع، وإذا كان نبي الإسلام (ص) مدينة العلم فهو باجها؛ الذي كان أول من آمن بالله وأول من صدّق النبي وما شكك في الحق مُدْ رآه.

هذا وإنه تحدّث بأسلوبه الحجاجي في كتابه نهج البلاغة عن كثير من الأمور التي امتنع الله تعالى عن إنجازها وقام بشرح فلسفة الامتناع وأجاب عن الأسئلة التي طرحها الناس في عهده حيث يمكن أن تتبادر هذه الأسئلة إلى ذهننا حتى يومنا هذا؛ على سبيل المثال لماذا امتنع الله أن يخلق آدم أو جميع الأنبياء من النور حتى يميل كل الناس إليهم وينقادوا لأوامرهم؟ لماذا ما رأى الله من الصواب أن يستقر الكعبة في أرض خضراء مملوءة بورود ورياحين ولماذا ما زينها بزمرد وياقوت و...؟ فعلي (ع) رأى من وظيفته أن يجيب عن هذه الأسئلة بصفته زعيماً هادياً مرشداً إلى الدين الصحيح والطريق القويم.

والمسألة لا تنتهي إلى هنا؛ فدراسة حياة الإمام (ع) ومراجعة الوثائق التاريخية والدينية خاصة كتابه نهج البلاغة تدعونا إلى الاعتقاد بأنّه قد يمتنع أيضاً أن يقوم بعمل ما ويستنكف عن إنجازها؛ فليس هذا فحسب، بل يذكر أسباب امتناعه ويقوم بشرحه تنويراً لعقلية المتلقي وتبييناً لفلسفة الامتناع عن الموضوعات التي كانت محل البحث والنقاش، على سبيل المثال

ماذا دفع الإمام إلى الامتناع عن المؤامرة على مقتل عثمان؟ لم لم يرضَ أن يكون من أدهى الناس في السياسة؟ لماذا أبى أن يقدم إلى الناس جميع العلوم التي كان يمتلكها؟ ... فاستقصاء الممتنع والعمل الذي امتنع عنه والسبب الذي دفعه أن يكفَّ عن عملٍ ما، هو موضوع البحث الذي بين أيدينا اعتقاداً بأن هذا الموضوع على أعظم جانب من الخطورة ومن أهم مرتكزات نوح البلاغة، ورصده يعين على فهم مقاصد المتكلم الذي صاحب الأسلوب الكلامي القويم ويلقي الكلام مع تدبّر وتريث وبلاغة خاصة.

١.١ أسئلة البحث

تسعى هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على أشكال الامتناع في نوح البلاغة وتحاول الإجابة عن الأسئلة التالية: من هو الممتنع في نوح البلاغة؟ ما هو أهم الممتنع في النصّ المدروس؟ ما هو السبب الرئيس لامتناع الممتنع؟ من المفروض أنّ الله تعالى امتنع بحكمته عن كثير من الأمور وقد رأى الخير في الامتناع وعدم الإعطاء.

٢.١ خلفية البحث

المقالة الوحيدة التي أشارت إلى موضوع الامتناع في نوح البلاغة هي «دراسة سندية ودلالية لامتناع الإمام على (ع) عن الخلافة بالتركيز على خطبة ٩٢ من نوح البلاغة» (١٣٨٩) من مهدى مرداني حيث عالج الباحث هذه الخطبة سنداً ومضموناً للوصول إلى الأسباب التي دفعت الإمام على (ع) إلى الامتناع عن قبول الخلافة دون أن يشير إلى أسلوب الكلام أو غيره من الامتناع الموظف في هذا الكتاب. بغض النظر عن هذه المقالة، هناك بحوث عن الجملات الشرطية المرتبطة بمفهوم الامتناع كـ «دراسة البناء النحوي - البلاغي لكلمة لو في القرآن الكريم» لمرتضى قائمي وسيد محمود قتالي (١٣٩٢) حيث استنتج الباحثان أنّ لو الشرطية أكثر توظيفاً في القرآن الكريم ويتراوح معناها بين التنبية، والتوبيخ، والحسرة، والتحضيض، والتمني، «طبقات الجملات الشرطية في اللغة العربية وتوظيفها في القرآن

الكريم» من أميرحسين رسول نيا ومرم آقاجاني، (١٣٩٢) حيث قام الباحثان بتقسيم الجملات الشرطية على أساس الشواهد القرآنية وعالجا بعض الأداة الشرطية من هذا المنظور دون أن يشير إلى لو الشرطية الامتناعية. رسالة الماجستير المعنونة بـ «أسلوب الشرط في نصح البلاغة (دراسة نحوية تطبيقية)» ليسرى خلف سمير ديوان السعيدى، (١٤٣٠) فالباحثة أشارت في هذه الرسالة إلى تحديد مفهوم الشرط عند النحويين وتعدد معانيها واختلاف وظيفتها وأنماط هذا الأسلوب وحاولت أن تأتي بنماذج من نصح البلاغة لكل أنواع الشرط وأشكاله دون الإشارة إلى أسباب الامتناع. «لولا في القرآن المجيد واللغة، حقيقتها وأنواعها ودورها الوظيفي» محمد إبراهيم خليفة الشوشتري وناهيده قادر (١٤٣٣) حيث عالج الباحثان الأشكال العديدة من توظيف كلمة «لولا» في القرآن الكريم وكيف أنّ هذه الكلمة ساعدت على خلق المعاني الجديدة في النصّ القرآني. لذلك من خلال البحث والتمحيص لم نقع على بحث تطرق إلى دراسة هذا الموضوع في نصح البلاغة، في حين أنّ لهذا الموضوع أهمية كبرى ويساعدنا على فهم أفضل للنصوص الدينية كانت أو غير دينية.

٢. البحث النظري

ذكرت معاني مختلفة للامتناع في كتب اللغة منها: منع: أن تحول بين الرجل وبين الشيء الذي يريده (إبن منظور، ١٤٠٨: ٥/٥٣٤) وهو خلاف الإعطاء (فارس بن زكريا، ١٤١١: ٥/٢٧٨) منعته أمنعته منعاً فامتنع: حُلثُ بينه وبين إرادته. (الفراهيدي، ١٤١٤: ٣/٢٧٩) وامتنع به: تقوى واحتمى به. (أنيس وآخرون، ١٤٠٨: ٨٨٨) والامتناع مصدر امتنع بمعنى الكف عن الأمر (طريحي، ١٣٧٥: ٣٩٣ ومسعود، ١٩٨٦: ١/٢٣٢) وعند أهل المناظرة هو ضرورة اقتضاء الذات عدم الوجود الخارجي (البستاني، ١٩٩٣: ٨٦٥).

والامتناع في الاصطلاح هو تعذر الحصول ومن معاني «لو» و«لولا» (يعقوب، ١٩٨٦: ١٥٢) لأنه قيل: لو لامتناع الشيء لامتناع غيره ويتضمن معنى الشرط نحو ﴿قُلْ لَوْ أَنُّنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ (اسراء/١٠٠) ولولا يجيء على وجهين أحدهما بمعنى امتناع الشيء لوقوع غيره ويلزم خبره الحذف ويستغني بجوابه عن الخبر (الأصفهاني، ١٣٦٢: ٤٥٨) نحو ﴿لَوْ لَا أَنُّنْتُمْ لَكُنَّا

استقصاء الممتنع وفلسفة الامتناع في خطب نوح/البلاغة ٢٧٩

مُؤْمِنِينَ ﴿سبأ/٣١﴾ أي لا يمكن العمل الذي يلي هذه الأدوات أن يصل إلى نتيجة، لأنّ اللازم باطل، فالملزوم باطل كذلك. بعبارة أخرى يمتنع حصول الجزاء، لأنّ ثبوت الشرط باطل. هذا وإنّ أهل البلاغة أشاروا إلى هذه المسألة في علم البديع؛ «هو مذهب ستماء عمرو الجاحظ المذهب الكلامي». (ابن المعتز، ١٩٧٩: ٥٧-٥٣) و«هو اصطناع مذهب المتكلمين العقلي في الجدل والاستدلال وإيراد الحجج والتماس العلل وذلك بأن يأتي البليغ على صحة دعواه بحجة قاطعة أيّاً كان نوعها» (عتيق، د.ت: ١٧٢-١٧١) وعلى حدّ تعبير القزويني: «هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام» (٣٧٤: ١٤١١).

ومن المصادر التي استفادت من هذا الأسلوب البياني هي القرآن الكريم، حيث نرى أنّ الله تعالى حين أراد نقل مفهوم الوحدانية قال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (أنبياء/٢٢) اللازم (وهو فساد السموات والأرض) باطل؛ لأن المراد به خروجهما عن النظام الذي هما عليه، فكذا الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل. يقول الطباطبائي في تفسير هذه الآية: «وتقرير حجة الآية أنّه لو فرض للعالم آلهة فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتاً متباينين حقيقة وتباين حقائقهم يقضي بتباين تدييرهم في تفساد التدبيرات وتفسد السماء والأرض، لكن النظام الجاري نظام واحد متلائم الأجزاء في غاياتها فليس للعالم آلهة فوق الواحد وهو المطلوب». (١٤١٧: ١٤/٢٦٧) وختام الآية ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ يشير إلى تنزيه الله عما يصفونه به من اتخاذ الشريك والصاحبة والولد فالجملة الأخيرة تأكيد لما قبلها.

وفي سورة البقرة يشار إلى أن اليهود لم يتبعوا الله بل اتبعوا الشياطين وكفروا بالله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (بقره/١٠٣) تقع في هذه الآية أداة الامتناع «لو» محل أداة النفي، يعني إنّ اليهود لم يتقوا ولم يعرفوا محارم الله، فكانوا كافرين وليس لهم نصيب من الرحمن وثواب من عند الله، أي امتنع حصول الثواب لعدم إيمانهم، فالإيمان هو الممتنع عنه.

ومن أمثله الأخرى في القرآن الكريم هي الآية السابعة من سورة الحجرات ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ فلزم انتفاء الجزاء أي الوقوع في العنت والشدة؛ لأنّ رسول الله لم يطعهم في كثير من الأمر، أي انتفاء الوقوع في الشدة مستنتج من امتناع الإطاعة. هذا وإنّ

حرف «لو» الدال على انتفاء الجزاء دخل في هذا النموذج القرآني على المضارع «لقصده استمرار الفعل فيما مضى وقتاً فوقتاً» (القرويني، ١٤١١: ١٠١).

هذا وإن «لولا» إذا دخلت على الفعل المضارع من أداة التحضيض والتوبيخ، ومن معانيها امتناع الشيء لوجود غيره. (زمخشري، ١٩٩٣: ٤٠٩) يعني وجود الشيء الثاني باطل لعدم وجود الشيء الأول، على سبيل المثال ولا الحصر قال عمر عن علي (ع): لَوْلَاكَ لَافْتَضَحْنَا (حكمت ٢٧٠) ففي هذه العبارة نوع من الامتناع؛ يعني لم نفتضح لأن علي (ع) حاضر مساعد واستفدنا من علمه.

وجدير بالذكر قد يستعمل «لو» في معني التمني قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَجَّزٍ مِنَ الْعَذَابِ أَنَّ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (بقره/٩٦) يشهد على أنهم لن يتمنوا الموت، إنهم أحرص الناس على هذه الحياة الدنيا التي لا حاجب ولا مانع عن تمني الدار الآخرة إلا الحرص عليها والإخلاد إليها (طباطبائي، ١٤١٧: ٣٤٤/١) ويأتي لولا بمعنى (هلاً) التوبيخية ويتعقبه الفعل نحو: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِّن قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ (طه/١٣٤) أي هلا وأمثلتهما كثيرة في القرآن.

ومن النصوص التي استعملت هذه الأداة في عملية نقل المعاني والمفاهيم هي «نهج البلاغة» حيث يستفيد الإمام (ع) منها في بعض الخطب لتبيين موضوعات مختلفة وتثبيتها في ذهن المتلقي. ولا غرو أن نجد في خطب نهج البلاغة غير هذه الأدوات التي ندرسها في هذا المقال، أفعال تدل على معنى الامتناع، كقوله عليه السلام: فقال الرجل: فَوَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنَعَ عِنْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيَّ فَبَايَعْتُهُ (عليه السلام) (الخطبة ١٧٠) أو ما جاء في الخطبة ٣٦: قَدْ كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ هَذِهِ الْحُكُومَةِ فَأَبَيْتُمْ عَلَيَّ إِبَاءَ الْمُتَابِعِينَ حَتَّى صَرَفْتُ رَأْيِي إِلَى هَوَاكُمُ (الخطبة ٣٦) أبيتتم بمعنى امتنعتم. لكن ما يرتبط بهذه الدراسة هو البحث عن الأمور التي امتنع الممتنع بحكم حكمة عن عمل خاص وكف عن إنجازها برواية نهج البلاغة.

هذا وإن طبيعة البحث تقتضي تقسيم الامتناع الموظف المشار إليه في هذا الكتاب حسب الممتنع إلى امتناع الله، امتناع الإمام وامتناع الملائكة حيث أتينا بجميع النماذج المرتبطة المتوافرة في الخطب وقمنا بتقسيمها على أساس الموضوع كما يلي.

١.٢ امتناع الله

الحق أن الله عزّ وجلّ العالم بالأشياء قبل ابتدائها المحيط بمحدودها وانتهائها العارف بقرائنها وأحنائها بحكم حكمة يمتنع عن بعض الشيء ويرى من الحكمة أحياناً ألا يعطي، ألا يجعل، ألا يأمر، ألا يستقرّ و...، هذا وإنّ الإمام علي عليه السلام قد قام بذكر بعض هذا الامتناع شارحاً أسبابه من جانب الله تعالى ونذكره تالياً.

١.١.٢ الامتناع عن جعل الأنبياء من الأثرياء

امتنع الله تعالى عن إعطاء مفاتيح الكنوز والمعادن للأنبياء وأراد أن يكونوا من الفقراء ولا الأثرياء، ورأى أنه غير مجد ومناسب لهم ووجد مصلحتهم في ذلك الامتناع؛ فالسؤال المطروح هو لم فعل الله هكذا؟ لماذا ما سخرّ الرب بقدرته اللامتناهية الطيور والوحوش لرسله؟... فجب الإمام علي (ع) عن هذه الأسئلة ويشرح مشيئة الله مع الاستفادة من أسلوب الامتناع حيث قال: لَوْ أَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِأَنْبِيَائِهِ حَيْثُ بَعَثَهُمْ أَنْ يَفْتَحَ لَهُمْ كُنُوزَ الدَّهْبَانِ وَمَعَادِنَ الْعُقْيَانِ وَمَعَارِسَ الْجِنَانِ وَأَنْ يَحْشُرَ مَعَهُمْ طُيُورَ السَّمَاءِ وَوُحُوشَ الْأَرْضِينَ لَفَعَلَ وَلَوْ فَعَلَ لَسَقَطَ الْبَلَاءُ وَبَطَلَ الْجَزَاءُ وَاضْمَحَلَّتِ الْأَنْبَاءُ (الخطبة ١٩٢).

إنّ ما يمكن أن نستشفّه من المقطع السابق هو أنّ الله هو الممتنع؛ حيث ما رأى من الحكمة أن يفتح الكنوز والمعادن للأنبياء، فلم يفتح لهم؛ والحال أنّ وجود طيور السماء ووحوش الأرضين يدل على أن الله يستطيع أن يسخر الكائنات؛ بتعبير آخر إنه لا يمتنع عجزاً بل يمتنع علماً بأنه لو كشف للرسول ما خفي من الكنوز والمعادن لم يعد للأنبياء والجزاء والبلاء مفهوم. فصاحب النص ألقى مفهوم كلامه الحجاجي - الذي يتكون من تقديم الحجج والأدلة التي تؤدّي إلى النتيجة المحدّدة - للمخاطب بالاستفادة من الكلمة الامتناعية وهي «لو» التي تدل عند النحويين بأصل وضعها على امتناع الجواب لامتناع الشرط. (عتيق، د.ت: ١١٣) والامتناع من أظهر المعاني المستعملة لهذه الكلمة ولا شك بأن لا يتحقق الفعل الذي يليه (قائمي، ١٣٩٢: ١٣١) ثم لا يكمن الإغماض عن الإيقاع الصوتي الذي حصل عن طريق التجانس بين كلمات «كُنُوزَ الدَّهْبَانِ، مَعَادِنَ الْعُقْيَانِ، مَعَارِسَ الْجِنَانِ/

فَعَلَ، سَقَطَ، بَطَلَ/البلاء، الجزاء، الأنباء» حيث يدلّ هذا التناغم الصوتي على النظم والترتيب والتنسيق الهني في الكون؛ فالامتناع المعنيّ مأخوذ في هذا النظام وجزء منه. تاسيساً على هذا التفسير كان ولا يزال للأنباء والجزاء والبلاء مفهوم عديد.

٢.١.٢ الامتناع عن استقرار البيت الحرام في الأرض الخضراء

امتناع آخر من جانب الله تعالى الذي تطرّق إليه الامام هو أنّ الله جعل بيته الحرام في البقاع التي تقع بين الجبال الخشنة والأرض الوعرة؛ والحال بإمكانه أن يجعلها في الأراضي الخضراء والأماكن المبهجة، فما هو السبب لهذا الإباء والامتناع ولماذا لم يقبل الخالق بذلك؟ هذا وإنّ صاحب النصّ يفسر أسباب هذا الامتناع قائلاً: لَوْ أَرَادَ سُبْحَانَهُ أَنْ يَضَعَ بَيْتَهُ الْحَرَامَ وَمَشَاعِرَهُ الْعِظَامَ بَيْنَ جَنَاتٍ وَأَنْهَارٍ وَسَهْلٍ وَقَرَارٍ جَمِّ الْأَشْجَارِ ذَائِي الثَّمَارِ مُلْتَفِّ الْبُنَى مُتَّصِلِ الْقُرَى بَيْنَ بُرَّةِ سَمَاءٍ وَرَوْضَةِ خَضْرَاءٍ وَأَرْيَافِ مُحْدِقَةٍ وَعِرَاصِ مُعْدِقَةٍ وَرَبَاضِ نَاصِرَةٍ وَطُرُقِ عَامِرَةٍ لَكَانَ قَدْ صَغُرَ قَدْرُ الْجَزَاءِ عَلَى حَسَبِ ضَعْفِ الْبَلَاءِ (الخطبة ١٩٢).

كما يبدو من النص السابق يحتجّ الإمام بأنّ الله لو أراد أن يضع بيته الحرام بين هذه المواضع الحسنة المبهجة المذكورة في النص لفعل، لكنه «أراد أن كبر جزاء المخلوق خاصة قلة البلاء تنتهي إلى صغر الجزاء والعناية الإلهية مضاعفة الثواب وبلوغ كل نفس غاية كما لها وذلك لا يتم إلا بكمال الاستعداد بالشدائد والميثاق، لذلك لم يرد أن يجعل بيته الحرام في تلك المواضع لاستلزامها ضعف البلاء». (البحراني، د.ت: ٢٨٢/٤) وفي تفسير آخر لو جعل بيته في حدائق وأنهار لكان مقهى وملهى ومسرحاً وبلاجا للشياطين لا مهبطاً للملائكة المقربين ومسجداً للعاكفين. (مغنيه، ١٩٧٣: ١٣١/٣) على ضوء هذا التفسير امتنع الله أن يضع بيته بين هذه الأمكنة الحسنة لأنه يلزم حينئذ أن يكون سبحانه قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء؛ خاصة إن البلوى والاختبار لما كانت أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل والله تعالى يريد أتم وأكمل الجزاء لعباده.

إنّ مثل هذا النص الذي بين أيدينا من نصح البلاغة يشهد أنّ المتكلم زاد اللفظ على المعنى وأخذ يذكر كل الميزات الحسنة للمكان الذي يمكن أن يقع بيت الله الحرام فيه؛ علماً بأن «في الإطناب تثبيتاً للمعنى وتقريراً في الذهن» على حدّ تعبير علماء البلاغة

استقصاء الممتنع وفلسفة الامتناع في خطب نوح/البلاغة ٢٨٣

(السكاكي، د.ت: ١٣٦) ثم إنه استفاد من فن التقسيم - وهو استيفاء المتكلم أقسام الشيء، بحيث لا يغادر شيئاً، يحتوي على جميع أنواعه ولا يخرج منها جنس من أجناسه (الزركشي، ١٩٥٧: ٤٧١/٣، العسكري، ١٤٢٧: ٣٠٨) - ومكانه من الفن القولي لا يخفى «فله موقع في الفصاحة لا يمكن جحده ولا يسع إنكاره» (العلوي، ١٩١٤: ١٤٤/٣) إذ الإطناب والتقسيم وتفصيل المسند إليه الموظف بعطف النسق في النص يمهّد الأذهان لبيان النتيجة؛ أي يريد أن يقول كلما زادت وكملت محاسن المكان صغر جزاء؛ بينما لن يريد الله الثواب الصغير لأعمال العباد.

ولا يفوتنا أن ننظر إلى أدبية النص خاصة السجع الموظف بين كلمات حرام وعظام، سمراء وخضراء، ناضرة وعامرة، جزاء وبلاء حيث أدى إلى موسيقى الكلام وزاد على إيقاع النص. ثم تكرار حرف الراء «بما فيه من خاصية التحرك» (عباس، ١٩٩٨: ٢٨) زاد على تجسيد حركة الأشجار والأنهار وقدم الحيوية لهذا المكان ونعمة النص؛ لم لا والكلام المنغم يعين السامع على حفظه وينبّه الأجهزة السمعية ويجعلها أقدر على التلقى (دراوشة، ٢٠١٠: ٥٤٧) على أية حال فالاستفادة من هذا الأسلوب الحجاجي مع الإيراد بالعلّة المناسبة تستقطب المتلقي حتى يستسلم للموضوع ويقنع بهذا الطريق.

٣.١.٢ الامتناع عن أن يكون الإله الثاني

حينما أراد الإمام أن يحتج بأولية الله ويظهر قدرته للذين يعتقدون أن الله هو الإله الثاني ويبرهن أن وجوده قبل وجود كل شيء يقول: لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً وَلَوْ كَانَ قَدِماً لَكَانَ إِلهاً ثانياً. (الخطبة ١٨٦) والتوضيح أنه لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ كَائِناً أي أنه محدث مسبوق الوجود بالعدم وسبب عدم وجود الأشياء قبله هذا الكلام: وَلَوْ كَانَ قَدِماً لَكَانَ إِلهاً ثانياً؛ فهو أشار إلى برهان حدوثه وهو قياس استثنائي وتقريره: «لو كان كلامه تعالى قديماً لكان كلامه إلهاً ثانياً؛ لكن التالي باطل فالمقدم كذلك». (البحراني، د.ت: ١٥٤/٤) بتعبير آخر يستنبط مما ذكر أنّ وجود إله آخر غير الله تعالى محال؛ لأنه لا يوجد شيء قبله والإله الثاني هو الممتنع.

ومن منظور بلاغي يمكن القول: نقل الإمام عدم وجود الشيء قبل الله إلى المتلقي في جملة ابتدائية؛ اعتقاداً بأن هذا الأمر واضح ولا شك فيه فلا يحتاج إلى أداة التأكيد، مع هذا

يليه حرف «لو» للحجاج وتحكيم الكلام ورد عقائد المنكرين، ويقول إن كان قبله كائن فعليه أن يكون إله آخر يساعده في خلق الأشياء وهذا مستحيل. وهكذا يصبح من المقبول، بل ربما من المسلم به أن الإمام استلهم في نصه مضمون هذه الآية القرآنية: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (انبيا/٢٢) يعني لَوْ كَانَ قَدِيمًا لَكَانَ إِلَهًا تَانِيًا وَلَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا واللزام وهو الفساد باطل، لأنّ الملزوم وهو تعدد الآلهة باطل وليس أدل على ذلك من الحقيقة والواقع (هاشمي، ١٣٧٩: ٣١٧) على أية حال أكد المتكلم على أنه لا يوجد إله آخر غير الله وهو صمد بلا نظير؛ والقى حديثه مع إيجاز القصر؛ المكوّن من لفظ يسير دال على معنى كثير حيث لا يمكن إنكار أثره في المتلقي.

٤.١.٢ الامتناع عن خلق آدم من النور

ثمّ سؤال يطرح نفسه هنا وهو لماذا لم يخلق الله آدم أو غيره من الأنبياء ورسله من النور حتى تكون خلقتهم مختلفة عن البشر ويدفع هذا الخلاف الناس خاضعين لأوامر النبي؟ فالنظرة اليسيرة إلى خطبة القاصعة خليقة أن تقنعنا؛ حيث يجب الإمام (ع) عن هذا السؤال على الشكل التالي: وَلَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الْأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ وَيَبْهَرُ الْعُقُولَ رُؤَاؤُهُ وَطِيبٌ يَأْخُذُ الْأَنْفَاسَ عَرْفُهُ لَفَعَلَ وَلَوْ فَعَلَ لَطَلَّتْ لَهُ الْأَعْنَاقُ خَاضِعَةً وَخَفَّتِ الْبُلُوى فِيهِ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمَيِّزًا بِالْإِخْتِبَارِ لَهُمْ وَتَقْبِيًا لِلْإِسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ وَإِنْعَادًا لِلْخِيَلَاءِ مِنْهُمْ (خطبة ١٩٢).

انطلاقاً من نصّ الخطبة نرى أنّ الإمام يحتجّ بأن الله تعالى يستطيع بقدرته اللامتناهية أن يفعل كل شيء اراده؛ لكنه يمتنع بحكمته البالغة أحياناً كما امتنع من أن يخلق آدم من النور اعتقاداً بأنّ الله «لو خلق آدم من نور باهر ومنظر حسن وخلاّب يبهّر العقول وروائح ذكية، لحفّ التكليف على المكلفين بالسجود لما يرون من عظمتهم وهائه، ولكنّ الله تعالى يختبر عباده تمييزاً من المطيع من العاصي». (دخيل، ٢٠٠٣: ٣٥٥-٣٥٤) المقصود ليطع رسول الله لأنه مأمور من جانب الله تعالى ويبلغ ما أمر به الخالق الذي لم يُخلّ سبحانه خلقه من نبي مرسل، فلا قيمة للطاعة التي تنشأ من اختلاف الخلق أو ما يشبه ذلك من الظاهر؛ فالرسول آدم كان أو غيره أمره مطاع لأنه يأمر بما أمر الله به وينهى عما نهى الله عنه. على

ضوء هذا التفسير استدللّ صاحب النصّ كلامه بالحجة والبرهان وقام بتهديب الأفكار مع الأدلة المتقنة والمنطقية. ولا يفوتنا أن نقول إنّ الممتنع هو الله والامتناع هو عدم خلقه آدم من النور والسبب هو ابتلاء الناس ببعض المجهولات وإبعاد الكبرياء منهم وتمييز العبد المطيع المخلص من العبد العاصي المكتفي بالظاهر. على أية حال أتى الإمام على صحّة امتناع الله بحجة بالغة وحاول لتقرير المفهوم المراد وتمكينه في ذهن السامع وإقناعه تجاه الموضوع.

٥.١.٢ الامتناع عن جواز الكبر للأنبياء

اختص الإمام (ع) خطبة «القاصعة» بتحقيق إبليس والمتكبرين حيث ذمّه على استكباره وتركه السجود لآدم عليه السلام وأخذ يحذّر الناس من الكبر طالباً الاعتبار بالأمم المستكبرين السابقين قائلاً: إن الكبر ذلّ هذه الأمم وعلى الناس أن يستعينوا بالله من هذه الرذيلة واجتنبوا عنه والله لا يحب هذه الرذيلة للناس ولا يجوز لأي أحد أن يتكبر مؤكداً على أنه تعالى ما أصدر جوازاً لأي أحد أن يتكبر ويتعطر؛ «فَلَوْ رَخَّصَ اللَّهُ فِي الْكِبْرِ لِأَحَدٍ مِنْ عِبَادِهِ لَرَخَّصَ فِيهِ لِحَاصَّةِ أَنْبِيَائِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَلَكِنَّهُ سُبْحَانَهُ كَرَهُ إِلَيْهِمُ التَّكَاثُرَ وَرَضِيَ لَهُمُ التَّوَاضُعَ فَالْتَّوَضُّعُ بِالْأَرْضِ خُدُودُهُمْ وَعَقَرُوا فِي التُّرَابِ وُجُوهَهُمْ وَخَفَضُوا أَعْيُنَهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ» (الخطبة ١٩٢).

والأمر الذي يستوجب عناية خاصة هو أنّ الفقرة السابقة تؤكد على أن الله تعالى لم يرض بالكبر والتكابر لأي أحد من مخلوقاته ولو كان هذا المخلوق نبياً صاحب مكانة مرموقة عند الله تعالى، كيف لا فهو الذي يدعو إلى التواضع والخشوع في كتابه الكريم قائلاً: ﴿وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (الإسراء/٢٤) لذلك امتنع الله من إصدار أي رخصة للكبر لخاصة أنبيائه وأوليائه، وإذا منع الخواص من الكبر والغرور كيف يسمح لسائر مخلوقاته وشأنهم في الكثير الأكثر دون شأن الأنبياء! فسبب هذا الامتناع يعود إلى أن الله يحبّ لين الجانب والتواضع ويكره التعطرس والغرور من مخلوقاته نبياً كان أو غير نبّي. على ضوء هذه القراءة حصل انتفاء الجواب (كبر خواص الأنبياء) لانتفاء الوحدة الأولى من الكلام (عدم الرخصة للكبر).

ومن منظور لغوي يمكن القول بأنّ تكرار حرف خاص في نصّ، يأتي لغرض خاص ويلفت نظر المتلقي للموضوع؛ على سبيل المثال نرى أنّ صاحب النصّ قام بتكرار حرف الراء؛ وصوت حرف الراء من أصوات الحروف هو أشبه ما يكون بالمفاصل من الجسد، وفي

الحقيقة إن حاجة اللغة العربية إلى حرف الراء لاتقل عن حاجة الجسد للمفاصل. وحسب قول أهل اللغة «لولا صوت الراء لفقدت لغتنا الكثير من مرونتها وحيوتها وقدرتها الحركية، ولفقدت بالتالي الكثير من رشاققتها، ومن مقومات ذوقها الأدبي الرفيع» (عباس، ١٩٩٨: ٨٨-٨٣)؛ إذاً وجود هذا الحرف في العبارة يدل على الثبات والاستقرار؛ يعني الله سبحانه وتعالى لن يريد الكبر لأي أحد من أوليائه وأنبيائه وامتنعت هذه الرذيلة عنهم. يقول حسن عباس إن شكل حرف الراء في السريانية يشبه الرأس (نفس المصدر) كما أن الأنبياء في المجتمع كراس أو جبل يحتاج الآخرون إليهم للهداية وهذه المماثلة سبب لتكرار حرف الراء في الجملة. وتكرار نفس فعل الشرط في الجواب لتثبيت المعنى في الذهن ووجود الضمائر يدل على انسجام بين العبارات. هذا وإن كثرة تكرار حروف (خ، ص) تشير إلى اختصاص خير الصفات لخير العباد وهم أنبياء وكثرة الحروف المشددة تدل على أن الله جزم على امتناع الكبر عن الناس حتى الأنبياء الذين اصطفاهم على العالمين وهذا الأمر يظهر كراهية الكبر. من ناحية أخرى نرى أن الإمام قام بتوظيف عدّة الكنايات في العبارة كـ«إصاق الحدود بالأرض، تعفير الوجوه في التراب، إخفاض الأجنحة للمؤمنين» فجميعها يدل على الخضوع حيث جعل صاحب النصّ هذا التكرار أداةً جماليةً تخدم علّة الامتناع.

٦.١.٢ الامتناع عن جعل الأنبياء أهل قوة لاثرام وعزّة لا تضام

على أساس شهادة نصح البلاغة إنّ الله امتنع أن يتفوّق الأنبياء على البشر في جميع الأمور وما أعطاهم قوة وقدرة لا يروم إليها من أحد وعزّة ودرجة لاتقبل أي ظلم ومذلة أبد الدهر، خاصة القدرة العظيمة والعزّة المنيعة تسلس قياد الخلق وتجعلهم يتصاعون ويرضخون منقادين وخاضعين لأوامر الأنبياء. السؤال الذي يتبادر إلى الذهن هو ما هي الحكمة في هذا الامتناع؟ فالإمام (ع) أخذ يشرح فلسفة هذا الامتناع الربّاني في خطبة ١٩٢ المعروفة بالقاصعة قائلاً:

وَلَوْ كَانَتِ الْأَنْبِيَاءُ أَهْلَ قُوَّةٍ لَا تُرَامُ وَعِزَّةٍ لَا تُضَامُ وَمُلْكٍ مُدُّ نَحْوَهُ أَعْنَاقُ الرَّجَالِ وَتُشَدُّ إِلَيْهِ عُقَدُ الرَّجَالِ لَكَانَ ذَلِكَ أَهْوَى عَلَى الْخَلْقِ فِي الْإِعْتِبَارِ وَأَبْعَدَ لَهُمْ فِي الْإِسْتِكْبَارِ وَلَا مَنُوا عَنْ رَهْبَةٍ قَاهِرَةٍ لَهُمْ أَوْ رَغْبَةٍ مَائِلَةٍ بِهِمْ فَكَانَتِ النَّيِّاتُ مُشْتَرَكَةً وَالْحَسَنَاتُ مُفْتَسِمَةً وَلَكِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ الْإِتِّبَاعُ لِرُسُلِهِ وَالتَّصَدِيقُ بِكُتُبِهِ وَالْحُشُوعُ لَوَجْهِهِ وَالِاسْتِكَانَةُ لِأَمْرِهِ

وَالْإِسْتِسْلَامُ لِطَاعَتِهِ أُمُورًا لَهُ خَاصَّةٌ لَا تَشُوبُهَا مِنْ غَيْرِهَا شَائِبَةٌ وَكُلَّمَا كَانَتِ الْبُلُوى وَالْإِخْتِيَارُ أَعْظَمَ كَانَتِ الْمَثُوبَةُ وَالْجَزَاءُ أَجْزَلَ.

يبدو من النص أنّ القدرة الكثيرة تجعل البشر أن يتركوا الكبر والاستكبار أمام صاحب القدرة وتعلمهم متجهين إليه طلباً للحصول على المال عنده أو خوفاً من بطشه وفراراً من غضبه، ولكنّ الله تعالى يحبّ الخشوع والاستسلام والخضوع ويرغب في الحب الذي يبذل الناس إليه وإلى الأنبياء ورسله بصدق كامل وبرضى وسرور بريء مما يشينه ويدنّسه ولاقيمة عنده تعالى للحب الذي منبعث من كره أو خوف. والحقيقة التي لا تُنكر هي كلّما كانت البلوى والمصيبة والامتحان أعظم، كانت المثوبة والجزاء أجزل.

على ضوء هذا التفسير بما أنّ المطلوب من المسلم أن يكون إيمانه من أجل الله وحده وبما أنّ الله راغب في خالص النيات مؤكداً على صدق الخضوع والخشوع، رأى أن يبعد الأنبياء من قوة لاترام وعزّة لاتضمام، في حين امتنع أن يجعل الرسل متمولين حتى لا يتجه الآخرون إليهم طمعاً للحصول على المال والثروة؛ فحكمة الله اقتضت ألا يكون الأنبياء أصحاب القوة العظيمة، لأنّ الخضوع والخشوع وخلوص النيات كان مطلوباً، لذلك صارت قوة الأنبياء وعزّتهم منتفية غير حاصلة.

ولغوياً يمكن القول بأنّ النموذج المدروس ذو إيقاعات موسيقية لافتة حصلت بواسطة توظيف السجع والجناس المتجلى في قوة، عزّة/ لاترام، لاتضمام/ تُمدّ، تُشدّ/ الرجال، الرجال/ الاعتبار، الاستكبار/ رهبة، رغبة/ ... حيث انتهى هذا التوازن اللغوي والصوتي إلى اتساق الخطاب الديني وزاد على جماليته وأديبته، فنرى في النص تداخلاً وتعاضداً بين الايقاع والدلالة، وهذا يجعل السامع أكثر تحفّزاً للنص والانتباه إليه.

٧.١.٢ الامتناع عن تقديم زيادة المعرفة إلى الملائكة

السؤال الذي يمكن التبادر إلى الذهن هو لماذا ما رأى الله من الصواب أن يجعل الملائكة عليماً بكل الأمور وما زاد على معرفتهم بعظمة الله بينما هم أعلم خلق الله به وأخوفهم له وأقربهم منه وطاعتهم كثيرة له وغفلتهم قليلة عن أمره؟ فالإمام يجب عن جميع هذه الأسئلة المطروحة قائلاً: لَوْ عَايَنُوا كُنْهَ مَا خَفِيَ عَلَيْهِمْ مِنْكَ لِحَقْرُوا أَعْمَاهُمْ وَلَزَرُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَعَرَفُوا

أَنَّهُمْ لَمْ يَعْبُدُواكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ وَلَمْ يُطِيعُوكَ حَقَّ طَاعَتِكَ (الخطبة ١٠٩) فالنص يشهد على أن الله لم يرض أن يقدم جميع المعرفة إلى الملائكة وينبهمهم بجميع الأمور الخفية خاصة ما زاد على معرفتهم بعظمته؛ «لأنهم استقلوا عبادتهم واستخفوها ووجدوها لا تليق بمقام الله» (دخيل، ٢٠٠٣: ١٨٥) ولو رخص الله به ما كانت عبادة الملائكة عظيمة وما كان يطاع حق طاعته؛ إذا رأى من الحكمة أن يبقى بعض الأشياء مجهولاً مخفياً عليهم.

٨.١.٢ الامتناع عن جعل أحجار البيت الحرام من زمرد و ياقوت

إنَّ الامام علي (ع) عالج في خطبة ١٩٢ أسباب امتناع الله تعالى عن تزيين البيت الحرام بأحجار كريمة من زمردة خضراء وياقوتة حمراء ونور وضياء ولو زينها لامتنع تسرب الشكوك إلى النفوس ولا يتعد الشيطان عن قلوب الناس ولكانت النفوس أدعى إلى تعظيم البيت على حد تعبير الإمام: «وَلَوْ كَانَ الْإِسَاسُ الْمَحْمُولُ عَلَيْهَا وَالْأَحْجَارُ الْمَرْفُوعُ بِهَا بَيْنَ زُمْرَدَةٍ خَضْرَاءَ وَيَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ وَنُورٍ وَضِيَاءٍ لَحَقَّفَ ذَلِكَ مُصَارَعَةَ الشَّكِّ فِي الصُّدُورِ وَلَوْضَعَ مُجَاهِدَةً إِبْلِيسَ عَنِ الْقُلُوبِ وَلَنَقَى مُعْتَلِجَ الرَّيْبِ مِنَ النَّاسِ»؛ فإذا كانت فيه الفوائد الكثيرة من ابتعاد الشك والريب والشيطان من قلوب الناس، فلم يرفض الله أن يقوم به وأبى أن يجعل البيت المعظم مزيناً بالأحجار الكريمة؟ فالإمام أخذ يشرح حكمة هذا الامتناع من جانب الله الحكيم قائلاً: «وَلَكِنَّ اللَّهَ يَخْتَارُ عِبَادَهُ بِأَنْوَاعِ الشَّدَائِدِ وَيَتَعَبَّدُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْمَجَاهِدِ وَيَتَّبِعُهُمْ بِضُرُوبِ الْمَكَارِهِ إِخْرَاجاً لِلتَّكْبِيرِ مِنْ قُلُوبِهِمْ وَإِسْكَاناً لِلتَّدَلُّلِ فِي نُفُوسِهِمْ وَلِيَجْعَلَ ذَلِكَ أَبْوَاباً فَتْحاً إِلَى فَضْلِهِ وَأَسْبَاباً دُلَّالاً لِعَفْوِهِ».

من الملاحظ أنَّ الإمام جعل اللون الأسود للأحجار المستعملة للبيت الحرام نوعاً من الشدة؛ فالبيت غير المزين جاء كتنقيض من الراحة والهدوء؛ ولعلَّ جنوح المتكلم إلى مثل هذا الانزياح يعطي النص حيوية واستمرارية. على ضوء هذا التفسير لا يريد الله توقف البشر عن الحركة والعمل ويبدو أنَّ التشديد في المحنة سبب للحصول على علو المنزلة وسمو المرتبة؛ والشدائد التي يعانها البشر تنتهي إلى الأجر الكريم والخير الوافر؛ فالله يختار عباده بمختلف المكاره، خاصة إنَّ الشدائد تبعد الانسان عن الكبر والغرور وتمنعه أن يتغطرس ويتباهي. فالاستفادة من هذا الأسلوب البياني بفاعليته الدلالية والمنطقية الذي عمل كحجة، انتهت إلى إثبات النتيجة المعنية.

٢.٢ امتناع الإمام (ع)

المسألة الهامة التي يجب أن نأخذها بعين الاعتبار هي أنّ الإمام (ع) أبى طوال حياته أن يقوم ببعض الأعمال ورأى من الصواب عدم القيام به، فقد أشار في خطب نوح البلاغة إلى عدد من الامتناع حيث يجدر بنا أن نعالجه هنا ونكشف أسبابه.

١.٢.٢ الامتناع عن الجزع الشديد على وفاة النبي (ص)

الحق أنّ التاريخ يشهد على موضع الامام علي (ع) من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة؛ فقد قرنه الله بالنبي من لدن أن كان فطيماً وكان يتبع النبي اتباع الفصيل أثر أمه على حد تعبير نفسه (القاصعة: ٣٧٣) وهو الذي أول من آمن به، وواساه بنفسه في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام (خطبة ١٩٥) و... والسؤال المطروح هنا لماذا ما استغرق داء فقدان النبي زمناً طويلاً على الإمام (ع) وما حاله الحزن والجزع في مصيبة فراقه ولم ما انفد على هذا الفراق ماء الشُّنُون؟ بعبارة أخرى ما هو سبب امتناع الإمام علي (ع) عن البكاء الشديد على فراق النبي (ص) طوال عمره؟ أليس مثل هذه القرابة والصدقة جديراً بالبكاء والجزع بعد الوفاة؟

والباحث في خطبة ٢٣٣ يجد الإجابة الصريحة من صاحب نوح البلاغة؛ حيث يكشف الإمام (ع) سبب امتناعه وامتناع الآخرين عن البكاء على النبي على مدار الساعة قائلاً: «وَلَوْ لَا أَنَّكَ أَمَرْتَ بِالصَّبْرِ وَ نَهَيْتَ عَنِ الْجُرْعِ لَأَنْفَدْنَا عَلَيْكَ مَاءَ الشُّنُونِ وَلَكَانَ الدَّاءُ مُمَاطِلاً وَالْكَمْدُ مُحَالِفاً قَلَّ لَكَ وَلَكِنَّهُ مَا لَا يُمْلِكُ رُدُّهُ وَلَا يُسْتَطَاعُ دَفْعُهُ». فالنص يشهد على انتفاء إنفاد مجاري العين الدمعية وانتفاء ماطلة الداء ومخالفة الحزن لأن النبي أمر بالتحلّي بالصبر ونهي عن الجزع والبكاء الحار على فقدانه ولو أنّ مواصلة الداء والحزن لقليلة أمام مصيبة وفاة النبي الأعظم؛ وما الحيلة دون ما لا يملك رده ولا يُستطاع دفعه! على أية حالٍ توظيف كلمة «لولا» بما فيها امتناع لوجود (السيوطي، ١٩٩٨: ٤٧٥) جعل النص امتناعياً. وهذا الحرف يدخل على الجملة الاسمية والفعلية لربط امتناع الثانية بوجود الأولى ويسمى حرف امتناع لوجود (خليفة الشوشتری، ١٤٣٣: ٦٨) مضافاً إلى ذلك أتى

المتكلم بخبر كان نكرة (مماطلاً/ محالفاً) حتى يدلّ على زمن طويل مجهول؛ بتعبير آخر تنكير الخبر في هذا السياق يدلّ على زمن غير معلوم، فالصبر و الاجتناب من الجزع منع الإمام عن الحزن المديد.

٢.٢.٢ الامتناع عن الأمر بالقتل أو النهي عنه

ردّ الإمام (ع) مراراً وتكراراً اتّهام قتله لعثمان والمشاركة فيه والنهي عنه مؤكداً على أنه غير مطلع على هذا الأمر، وفي كتاب له إلى معاوية خاطبه: «يَا مُعَاوِيَةَ لِيُنْزِلَ نَظْرَتَكَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَبْوَاكَ لِتَجِدَنِي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ وَ لَيْتَعَلَمَنَّ أَيُّ كُذِّبْتُ فِي عُزْلِيَّةٍ عِنْدَهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَسَّئِي فَتَجَحَّنَّ مَا بَدَأَ لَكَ» (الكتاب السادس)؛ فإنه امتنع عن صدور أمر لقتل عثمان، وليس هذا بل امتنع عن نهي الآخرين عن قتله اعتقاداً بأن «لَوْ أَمُرْتُ بِهِ لَكُنْتُ قَاتِلاً أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً». (الخطبة ٣٠) هذا الكلام بظاهره يقتضي أنه (ع) ما أمر بقتل عثمان ولا نهي عنه، غير أنه لا يجوز أن يحمل الكلام على ظاهره لأن قد ثبت في السير أنه كان ينهي الناس عن قتله؛ إذاً «يجب أن يحمل لفظ النهي على المنع - ما يقال الأمير ينهي عن نهب أموال الرعية أي يمنع - لأنه ما أمر بقتله ولا منع عن قتله» (ابن أبي الحديد، ١٣٨٥: ١٢٦/٢) إنّ القتل يطلق في العرف على الأعم من السبب والمباشر فيستلزم الأمر به له عرفاً (نَهَيْتُ عَنْهُ لَكُنْتُ نَاصِراً) لاستلزام النهي عنه النصره له وهو ظاهر وهاتان القضيتان منتجان لعدم مداخلته (ع) في قتل عثمان بالأمر والنهي (الهاشمي الخوئي، د.ت: ٢٩/٤).

بدأت الجملة بـ«لو» وهذا الحرف للشرط في الماضي مع القطع بانتفاء الشرط، فيلزم عدم الثبوت وانتفاء الجزاء (التفتازاني، ١٤١١: ١٤٤-١٤٣) أي لم يأمر الإمام بقتله فلم يكن قاتلاً ولم يكن ناصراً، لأنه لم يمه الناس عن قتله، فيمتنع أن يكون قاتلاً أو ناصراً لعدم وجود الأمر والنهي بقتله. والحصيلة النهائية هي عدم اشتراكه في دم عثمان وكان أعدائه على علم بذلك. ولا يفوتنا أن نشير إلى الاتساق الحاصل من التضاد بين «أمرت/ نهيته» وتكرار ضمير «ت» في كلمات «أمرت/ كنث/ نهيته» والموازنة الحاصلة من الكلمتين «قاتلاً/ ناصراً»؛ فالمصاحبة المعجمية زادت على التلائم بين المعنى واللفظ.

٣.٢.٢ الامتناع عن الإخبار بجميع الحقائق للناس

الحق أنّ الإمام علي عليه السلام قد بلغ من العلم إلى مبلغه، فهو الذي أخبر بعلمه الواسعة عن الحوادث المستقبلية والأخبار المتعددة؛ العالم الذي خاطب الناس قائلاً: أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ. (الخطبة ١٨٩) الذي نقرأ منه في الخطبة الخامسة من نوح/البلاغة: «... بَلِ انْدَجَبْتُ عَلَى مَكُونِ عِلْمٍ لَوْ بُحْتُ بِهِ لَأَضْطَرُّنْتُمْ اضْطِرَابَ الْأَرْضِيَّةِ فِي الطَّوِيِّ الْبَعِيدَةِ». هذه العبارات تشير إلى سعة معرفة الإمام (ع) بخفايا الناس وتصرفاتهم. هذا فإنه قال في خطبة ١٧٥: «وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُ أَنْ أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلَجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ». لكن الحقيقة التي لا يمكن الإغماض عنها هي أنه امتنع عن الإخبار بجميع الحقائق لهم وأبى أن ييوح بكل الأسرار والخفايا، فالسؤال المطروح هو لماذا امتنع الإمام عن تقديم جميع المعلومات إلى الناس وما دفعه أن يأبى التصريح بتصرفات الناس ماضية كانت أو آتية؟ والحال أنه قادر على هذا الأمر و بمقدوره لو شاء لأخبر كل رجل منهم بمواضع تصرفاته وحركاته وجميع أحواله، خاصة أنه أقسم على هذه الاستطاعة.

فالإمام يواصل حديثه ويشير إلى فلسفة امتناعه عن هذا العمل حيث يقول: «وَلَكِنْ أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ اللَّهِ». إنّ ما يمكن أن نستشفه من الجملة المذكورة هو أنّه لا يثق بالناس الذين ليست لديهم قابلية لتلقّي العلوم؛ كيف لا فهو أمام جماعة هزيلة إذا شبت ماتت! إذاً لا يعتمد عليهم ويحتمل أنهم يغفلون فيه ويفضلونه على رسول الله تعالى (البحراني، د.ت: ٣/٣٤٧-٣٤٨) فما هو إلا كفر بالرسول وخروج من الإسلام؛ على هذه العقلية تحاشى الإمام من الكفر الجديد ورغب عن التصريح بما يعلم والتزم بالسكوت ومنع نفسه من البوح بجميع الحقائق حذراً من أن يفروا فيه برسول الله وادعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة؛ لذلك إنه لا يخبر به خوفاً أن يقال فيه من الغلو ما يوجب الكفر بالله ورسوله (مغنيه، ١٩٧٢: ٢/٥٢٢).

أسلوبياً يمكن القول بأنّ الاستفادة من القسم «والله» والفعل الماضي في الشرط وجوابه «شئتُ/ فعلتُ» وتوظيف لام التأكيد يدلّ على قطعية مفهوم النصّ وتحققه حيث لا يمكن

ردّه؛ لكنّ صاحبه امتنع عن القيام به؛ فعدم القيام بهذا الأمر المقطوع خير دليل على أنّ الإمام يتصرّف حسب علمه لا على حسب القدرة والاستطاعة المعطية من جانب الله العليم. ثمّ لا يمكن الإغماض عن الإحصاء المفصّل في الفقرة النثرية «بمَحْرَجِهِ/ وَمَوْلِيهِ/ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ» حيث يشهد هذا التفصيل على سعة اطلاع صاحب النصّ من جزئيات الأمور وإشرافه على جميع الخفايا.

٤.٢.٢ الامتناع عن أن يكون من أدهى الناس

كره الإمام أن يتصرف ك معاوية وأن يكون مثله خائناً ناقض العهد تارك الوفاء غير راعٍ أيّ ميثاق وغير حافظ أيّ حرمة اعتقاداً بأنّ معاوية ليس أشدّ دهاءً وأوسع حيلةً منه، لكنه صاحب الخدعة والمكر ينقض العهد ولا يفي به، حيث انتهى هذا الغدر به إلى الفجور والكفر: «وَاللَّهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأَدْهَى مِنِّي وَ لَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَ يَفْجُرُ وَلَوْ لَا كَرَاهِيَةُ الْعَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ وَلَكِنْ كُلُّ غَدْرَةٍ فُجْرَةٌ وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ وَلِكُلِّ غَادِرٍ لَوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (الخطبة ٢٠٠) كما يستنبط من الفقرة السابقة فيما يتحدثنا الإمام عن غدر معاوية وفجوره، فإنه يخبرنا عن استنكافه من أن يكون من أدهى الناس؛ إذ أنه لا يرى الدهاء المنبثق من الغدر حدقاً ومهارة في تدبّر الأمور بل جعله معادلاً للفجور والكفر؛ فإذا كانت الحال كذا لا يليق به أن يكون من أدهى الناس ولو كان الأمر باستطاعته. ولا يفوتنا أن نقول إن في عبارة « في كُلِّ غَدْرَةٍ فُجْرَةٌ وَكُلُّ فُجْرَةٍ كُفْرَةٌ» استفاد المتكلّم من تقنية «تشابه الأطراف» أو «التسبيغ» وزاد بتوظيفها على أدبيّة النص الامتناعي.

٥.٢.٢ الامتناع عن القبول العاجل للخلافة

بعد قتل عثمان، طلب الناس من علي بن أبي طالب (ع) لقبول الحكومة وألحوا على طلبهم وأرادوا البيعة، لكنه امتنع عن القبول العاجل والفوري قائلاً: «دَعُونِي وَالتَّمِسُوا غَيْرِي» (الخطبة ٩٢) ورفض بداية الأمر أن يتولى أمور الناس قائلاً: «فَإِنَّا مُسْتَقْبِلُونَ أَمْرًا لَهُ وَجْهُ وَأَلْوَانٌ لَا تَقُومُ لَهُ الثُّلُوبُ وَلَا تَثْبُتُ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَإِنَّ الْأَفَاقَ قَدْ أَعَامَتِ وَالْمَحَجَّةَ قَدْ تَنَكَّرَتْ. وَاعْلَمُوا أَيُّ إِنِّ أَحَبُّكُمْ رَكِبْتُ بِكُمْ مَا أَعْلَمُ وَمَ أَصْغِ إِلَى قَوْلِ الْقَائِلِ وَعَتَبِ الْعَاتِبِ

استقصاء الممتنع وفلسفة الامتناع في خطب نوح/البلاغة ٢٩٣

وَإِنْ تَرَكْتُمُونِي فَأَنَا كَأَحَدِكُمْ وَلَعَلِّي أَسْمَعُكُمْ وَأَطُوعُكُمْ لِمَنْ وَابْتِئْمُوهُ أَمْرُكُمْ وَأَنَا لَكُمْ وَزِيْرًا خَيْرٌ لَكُمْ مِنِّي أَمِيرًا (نفس المصدر).

كما يستنبط من النص أنّ الإمام لا يثق بالناس الحاضرين ولا يعتمد عليهم لأنه على علم كامل بأنّ الذين أرادوا بيعته هم الذين بايعوا من كان قبله، واعتادوا على سيرتهم؛ فأرادوا منه أن يسير فيهم بتلك السيرة فأبى وقال: دعوني واتركوني أن أتقلد ماتريدون، واطلبوا غيري ليسير فيكم بسيرتهم. على ضوء هذا التفسير إنّ كلامه كلام عاتب وشاك من أصحابه، وحينما قال دعوني والتمسوا غيري ليس إلا على طريق الضجر منهم والتبرم والتسخط لأفعالهم؛ لأنهم كانوا عدلوا عنه من قبل واختاروا عليه، فلما طلبوه بعد أجهام جواب المسخط العاتب. (الميلاني، ٢٠١٢: ١٧٣) فهو يعرفهم حق المعرفة ويخاطبهم: «هَيْهَاتَ أَنْ أَطَّلَعَ بِكُمْ سَرَازَ الْعَدْلِ أَوْ أُقِيمَ اعْوِجَاجَ الْحَقِّ» (الخطبة ١٣١) هذا وإنّ القبول العاجل والفوري لأمر يشهد على اشتياق صاحبه والرغبة الملحة من جانبه؛ ففكره الإمام أن يكون مشتاقاً محبباً للخلافة في رأى الناس وحذر أن يكون متهماً في عيونهم. وفي تفسير آخر إنّ الإمام (ع) امتنع عن القبول الفوري للخلافة لأنّ البدعة قد زادت وصعب إصلاح المجتمع فرأى رفض الخلافة من الصواب. (مرداني، ١٣٩٠: ١٦٣)

وأخيراً بعد أن أصرّ الناس على طلبهم ما رأى حيلة إلا أن يقبل مشيراً إليه في خطبة له المعروفة بالشقشقية: «لَوْ لَا حُضُورُ الْحَاضِرِ وَقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيَّ الْعُلَمَاءِ إِلَّا يُقَارُوا عَلَيَّ كِظَّةٍ ظَالِمٍ وَلَا سَعْبٍ مَظْلُومٍ لِأَلْفَيْتُ حَبْلَهَا عَلَيَّ غَارِبًا وَلَسَقَيْتُ آخِرَهَا بِكَأْسِ أَوْلَهَا وَلَا لَفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هَذِهِ أَرْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنزٍ». (الخطبة ٣) والحق أنّ نظرتة المعنوية من المكونات الرئيسة لكلامه القيم؛ فهو الذي قال في قسم من خطبة ١٣١: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافِسَةً فِي سُلْطَانٍ وَلَا اتِّمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْخَطَامِ وَلَكِنْ لِنَرِدِ الْمَعَالِمِ مِنْ دِينِكَ وَنُظْهِرَ الْإِصْلَاحَ فِي بِلَادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وَتُقَامَ الْمُعْطَلَّةُ مِنْ حُدُودِكَ».

على أية حال الإمام هو الممتنع والخلافة هي الممتنعة عنها والغرض من الامتناع هو عدم الثقة بالناس، ولو أنّ الإمام رضى بما أخيراً ووافق عليها لأسباب ذكرناها آنفاً.

٦.٢.٢ الامتناع عن ايثار شخص على آخر في الغنائم

روى أنّ عبد الله بن زعنة - فهو من شيعة الإمام - قدم على الإمام (ع) في خلافته وطلب منه مالا، فامتنع الإمام عنه وحذر واحترز من ايثاره على الآخرين وقال (ع): إِنَّ هَذَا الْمَالَ لَيْسَ لِي وَلَا لَكَ وَإِنَّمَا هُوَ فِيءٌ لِلْمُسْلِمِينَ وَجَلِبُ أَسْيَافِهِمْ فَإِنْ شَرَكْتَهُمْ فِي حَرْبِهِمْ كَانَ لَكَ مِثْلُ حَظِّهِمْ وَإِلَّا فَجَنَاهُ أَيْدِيَهُمْ لَا تَكُونُ لِعَيْرِ أَقْوَاهِهِمْ (الخطبة ٢٣٢) المقصود من هذا الكلام هو أن هذا المال من غنائم المسلمين الذين شاركوا في الحرب ولا يحق لأحد أن يأخذ منه حسب احتياجاته؛ فتمرة أيدي المناضلين والمجاهدين لا يتعلق إلا بهم لا أقل ولا أكثر. إذا امتنع الإمام عليه السلام أن يبذل ما للمسلمين من الغنائم لأحدهم وأن يرجح شخصاً على آخر دون أن يراعى جانب العدالة والمساواة؛ فالامتناع الموظف خير دال على عدالة الإمام (ع) وخير دليل على أنه لا يجامل أي أحد في غنائم المسلمين قريباً كان أو بعيداً.

والتوضيح أنّ لفظ الجناة استعير لما اكتسبوه بأيديهم من ذلك المال ملاحظة لمشابته باقتطاف الثمرة واجتثاثها، وهو من أفصح الاستعارات ويجري مجرى المثل يضرب لمن يطلب مشاركة غيره في ثمرة فعل فعله ذلك الغير وتعب فيه. ولما كان قوله «والا» دالا على مقدم شرطية متصلة تقديره والا تكن قد شركتهم في حربهم. إذ كان مفهوم هذا القول دالا على عدم استحقاق غير الجاني نصيباً مما جنته يد الجاني فكأنه قال: وإلا شركتهم في حربهم فلا يكون لك نصيب فيما كسبته أيديهم والفاء لجواب الشرط المقدم (البحراني، د.ت: ١١٢/٤) ما قال الإمام لسياسته في المال: «لَوْ كَانَ الْمَالُ لِي لَسَوَّيْتُ بَيْنَهُمْ فَكَيْفَ وَإِنَّمَا الْمَالُ مَالُ اللَّهِ» (الخطبة ١٢٦) يعني إن كان المال لي فسويت بينهم فالآن كيف يفضل البعض على بعض المال مال الله.

على أية حال استعمل «إن» في هذه الخطبة لمعنى «لو» ومفهوم كلام الإمام (ع) هذا: ليس لك نصيب من هذا المال لأنك لم تشرك في الحرب ولم تقاتل في سبيل الله يعني منع الغائبين من فيء الحرب. يستعمل حرف شرط «إن» في عدم جزم وقطع المتكلم بوقوع الشرط في المستقبل. (هاشمي، ١٣٧٩: ١٣٨) لأنه يقع في الأحوال التي يندر وقوعها وما استفادته الإمام في هذه الخطبة في الشرط المقطوع بثبوتها؛ لأنه ينزل المخاطب العالم منزلة الجاهل لمخالفته مقتضى علمه.

٣.٢ امتناع الملائكة

انطلاقاً من نص نوح البلاغة يمكننا القول بأن الإمام علي (ع) أشار مرّة واحدة إلى امتناع الملائكة في كتابه القيم وذكر أسباب استنكافهم عن بعض الأعمال؛ لذلك نقوم في الخطوة التالية هذا النموذج من الامتناع البادر من الملائكة.

١.٣.٢ الامتناع عن استعظام الأعمال

يصف الإمام الملائكة الذين شغلتهم العبادة عن الأمور الأخرى حيث يعرفون الله حق معرفته ولا يستكبرون أعمالهم قائلاً: «لَمْ يَسْتَعْظِمُوا مَا مَضَى مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَلَوْ اسْتَعْظَمُوا ذَلِكَ لَنَسَخَ الرَّجَاءُ مِنْهُمْ شَفَقَاتٍ وَجَلَّهِ». (الخطبة ٩١) ما يراد من النص أن الملائكة لا يستعظمون أعمالهم من العبادة وطول الاجتهاد ولو استعظموها لأزال رجائهم الخوف والوجل من الله تعالى؛ الملائكة خائفون ابداً وأنهم لا يستعظمون سالف عبادتهم من خيبتهم. وقال باحث في هذا المجال: يجب أن يكون الخوف مساوياً للرجاء والتفائل للتشاؤم كي يستمر المكلف في العمل، فان تغلب أحدهما على الآخر كانت النتيجة الإهمال والكسل واستكثار الأعمال نتيجة طبيعية لتغلب الرجاء على الخوف ومن أجل هذا تجنبه الملائكة. (مغنيه، ١٩٧٢: ٢٩/٢) يعني إنهم لو استعظمو سالف أعمالهم لأوجب ذلك اغترارهم وزيادة رجائهم لثواب أعمالهم فيبطل ذلك ويزيل ما وجلهم وخوفهم (خويي، د.ت: ٩٣٤/٦) فالحصيلة النهائية هي أنّ الممتنع هو الملائكة، والممتنع عنه هو استعظام الأعمال، وفلسفة الامتناع هي الرغبة في استمرار الخوف ودوام الوجل من الله العظيم؛ فحكمة الله تعالى اقتضت أن يدوم خوف الملائكة، لذلك استلزام الخوف انتهى إلى مواصلة العبادة والاجتهاد من جانب الملائكة.

٣. النتائج

يمكن الاستنتاج من دراسة الخطب من نوح البلاغة هو أن الإمام فيما يتحدثنا عن الامتناع، فإنه يجبرنا عن فلسفته وأسبابه؛ والامتناع الموظف والمشار إلى فلسفته في كتابه القيم يتأرجح بين امتناع الله والإمام والملائكة. فالدراسة هذه تدعونا إلى الاعتقاد بأن الله أراد أن يتبلي

الناس ببعض المجهولات، وصحيح أنه قادر على كل شيء، لكنه بحكم حكمته العظيمة امتنع عن بعض الأمور؛ على ضوء هذا التفسير امتناع الله منبعث من الحكمة ولا الضعف والعجز. وبما أنه عالم بأسرار الأمور وخبير بما جرى ويجري في العالم لا يمتنع عجزاً بل يمتنع علماً وحكمة. ثم إنّ حكمته جرت أن يكون جميع الخلائق محتاجين إليه متواضعين أمامه؛ فجميع ما في الحياة من حسن وسيء وإعطاء وامتناع جاء لاختبار العباد وامتحانهم، إذاً الامتناع ليس دليلاً على غضب الله تعالى ولا الإعطاء دليلاً على رضائه، بل يأتي كل منهما على أساس درجة الفتنة والاختبار.

هذا وإنّ الإمام صرح في كلامه عن بعض امتناع يختصّ به؛ فإنه امتنع عن الجزع الشديد على وفاة النبي (ص)، استنكف عن الأمر بقتل عثمان أو نهي عنه، أبى أن يخبر الناس بجميع الحقائق، كره أن يكون من أدهى الناس، لم يرض بالقبول الفوري والعاجل للخلافة ولم يقبل إثارة شخص على آخر في تقسيم الغنائم؛ فالقراءة الفاحصة لهذه الامتناعات ووقوف المتأني عندها تتيح لنا أن الإمام كان بمقدوره القيام بالأعمال السالفة الذكر، لكنه استنكف منها اعتقاداً بأن في هذا الرضا مرضاة لله تعالى، وتوصية ونصحاً من النبي (ص) وحكمة وخيراً للناس؛ على ضوء هذا التفسير فالإمام يتصرّف حسب علمه ولا القدرة المتاحة له.

ثم لا يفوتنا أن نقول إنّ الاستفادة من الأسلوب الفني المبني على الامتناع جعلت النصّ المدروس أكثر استحكاماً وقوة وساعدت على سرعة عملية نقل المعاني والمفاهيم المعنية للمتلقّي وانتهى إلى تمكين الكلام وتقريره في الدّهن. من ناحية أخرى تشهد النماذج المدروسة على أنّ الحجاج هو المكوّن الرئيس للامتناع حيث حاول صاحب النصّ أن يقنع المخاطب لتلقّي المفهوم المعنيّ؛ فالإمام بتوظيف البراهين والأدلة الفريدة في إطار الامتناع يقوم باقناع المتلقّي بشكل فني ويحاول عن طريق حجاجية النماذج الامتناعية أن يجعل النصّ ذا حيوية وشحنة إقناعية وينشّط بهذه الآلية حضور المتلقّي ويقوّي العلاقة بين النصّ والمتلقين.

المصادر

القرآن الكريم.

استقصاء الممتنع وفلسفة الامتناع في خطب نوح البلاغة ٢٩٧

ابن أبي الحديد (١٣٨٥ش). شرح نوح البلاغة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم؛ ط٢، د.ب: دار إحياء التراث العربي.

ابن المعتز، عبدالله (١٩٧٩م). البديع، تعليق: إغناطيوس راتشكوفسي؛ ط٢، د.ب: د.ن.

ابن منظور (١٤٠٨ق). لسان العرب المحيط، د.ط، بيروت: دارالجيل، دار لسان العرب.

الإصهاني، الراغب (١٣٦٢ق). المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاي؛ ط٢، د.ب: المكتبة المرتضوية.

أنيس، إبراهيم وآخرون (١٤٠٨ق). المعجم الوسيط، ط٣، د.ب: دفتر نشر فرهنگ اسلامي.

البحراني، ابن ميثم (د.ت). شرح نوح البلاغة، د.ط، بيروت: دار الآثار للنشر، دار العالم الإسلامي.

البستاني، بطرس (١٩٩٣م). محيط المحيط، د.ط، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

الفتازاني، سعدالدين (١٤١١ق). مختصر المعاني، ط١، قم: دار الفكر.

الفتازاني، سعدالدين (١٤١٦ق). المطول، حاشية: السيد مير شريف؛ ط٤، قم: مكتبة الداوري.

خليفة الشوشري، محمد إبراهيم وقادر، ناهيده (١٤٣٣). «(لولا) في القرآن المجيد واللغة، حقيقتها وأنواعها ودورها الوظيفي»، آفاق الحضارة الإسلامية، س١٥، ش١، صص ٦٣-٨٥.

دخيل، علي محمد علي (٢٠٠٣م). نوح البلاغة، ط١، بيروت: دار المرتضى.

دراوشة، صلاح الدين أحمد (٢٠١٠م). الرؤى والأدوات عند شعراء القرن الثاني الهجري، ط١، الأردن: عالم الكتب الحديث.

الزركشي، محمد بن عبدالله (١٩٥٧م). البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم؛ ط١، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية.

الزخشري، أبو القاسم محمود بن عمر (١٩٩٣م). المفصل في صناعة الإعراب، تقديم وتبويب: علي بو ملحم؛ ط١، لبنان: مكتبة الهلال.

السكاكي (د.ت). مفتاح العلوم، ط١، د.ب: د.ن.

السيوطي، أبوبكر (١٩٩٨م). همع الموامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: أحمد شمس الدين؛ ط١، بيروت: دارالكتب العلمية.

طباطبائي، سيد محمد حسين (١٤١٧ق). الميزان في تفسير القرآن، ط٥، قم: دفتر انتشارات اسلامي جامعه مدرسين حوزة علميه قم.

طريحي، فخر الدين (١٣٧٥ش). مجمع البحرين، تحقيق: سيد احمد حسيني؛ ط٣، تهران: كتابفروشي مرتضوي.

عباس، حسن (١٩٩٨م). خصائص الحروف العربية ومعانيها، ط١، سوريا: منشورات اتحاد الكتاب العرب.

عتيق، عبدالعزيز (د.ت). علم البديع، د.ط، بيروت: دارالنهضة العربية.

٢٩٨ آفاق الحضارة الإسلامية، السنة ٢٢، العدد ٢، خريف وشتاء ١٤٤٠ هـ.ق

- عتيق، عبدالعزيز (د.ت). علم المعاني، د.ط، بيروت: دارالنهضة العربية.
- العسكري، أبو هلال (١٤٢٧ق). كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم؛ ط١، بيروت: المكتبة العصرية.
- العلوي، يحيى بن حمزة (١٩١٤م). الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم دقائق الإعجاز، تصحيح: سيد بن علي المرصفي؛ د.ط، مصر: مطبعة المقتطف.
- فارس بن زكريا، أحمد (١٤١١ق). معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون؛ ط١، د.ب: دارالجيل.
- الفراهيدي، خليل بن أحمد (١٤١٤ق). كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، ابراهيم السامرائي؛ تصحيح: أسعد الطيب؛ ط١، قم: المطبعة باقري.
- قائمي، مرتضى وقتالي سيد محمود (١٣٩٢). «بررسی ساختاری نحوی- بلاغی حرف «لو» و کاربرد آن در قرآن کریم»، فصلنامه پژوهش های ادبی - قرآنی، س١، ش١، صص ١٥٤-١٢٧.
- القزويني، الخطيب (١٤١١ق). الإيضاح في علوم البلاغة، ط١، قم: دارالكتاب الإسلامي.
- مرداني، مهدي (١٣٩٠). «بررسی سندی و دلالي امتناع امام علي (ع) از خلافت با تأکید بر کلام ٩٢ نخب البلاغه»، مجله پژوهشهای قرآن و حدیث، س٤٣، ش٢، صص ١٦٧-١٥٣.
- مسعود، جبران (١٩٨٦م). الرائد، ط٥، بيروت: دار العلم للملايين.
- مغنيه، محمد حواد (١٩٧٣م). في ظلال نخب البلاغة، ط١، بيروت: دار العلم للملايين.
- الميلاني، السيد هاشم (٢٠١٢م). نخب البلاغة، ط٩، تهران: مؤسسة أنوار الرسول الأعظم.
- هاشمي، السيد أحمد (١٣٧٩ش). جواهر البلاغة، ط١، تهران: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.
- الهاشمي الخوئي، حبيب الله (د.ت). منهاج البراعة في شرح نخب البلاغة، تصحيح: السيد ابراهيم المياجي؛ د.ط، طهران: مكتبة الإسلامية.
- يعقوب، إميل بديع (١٩٨٦م). موسوعة النحو والصرف والإعراب، ط١، بيروت: دارالعلم للملايين.

واکاوی امتناع‌کننده و دلایل امتناع در خطبه‌های نهج‌البلاغه

علی نجفی ایوکی*

مرضیه سادات کدخدایی**

چکیده

امام علی (ع) در نهج‌البلاغه به اقتضای شرایط حال مخاطب و بر اساس ذهنیت وی، برای بیان معنا و ترسیم مفاهیم مورد نظر، از استراتژی‌های بیانی مختلفی استفاده کرده است، امتناع از مهم‌ترین شگردهایی است که امام در متن دینی خود آن را به کار بسته است؛ متکلم زمانی از این روش استفاده می‌کند که بر عدم وقوع امری اطمینان داشته باشد و به قطعیت رسیده باشد. ابزاری که متکلم عموماً برای بیان این مقصود از آنها بهره می‌گیرد عبارتند از ادات جازم و غیر جازم (إن، لو و لولا). واکاوی خطبه‌های نهج‌البلاغه از این منظر بر این امر گواهی می‌دهد که امتناع با رویکرد احتجاجی و مستحکم خود برای ترسیم موضوعات متعددی به کار بسته شده است که امتناع‌کنندگان آن شامل خداوند متعال، امام (ع) و فرشتگان می‌شود. در پرتو حضور پررنگ امتناع در نهج‌البلاغه و نقش کلیدی این فن در القای مفهوم مورد نظر صاحب متن، این مقاله بر آن است تا با رویکرد توصیفی - تحلیلی، امتناع‌های دخالت داده شده در خطبه‌های این متن دینی را مورد شناسایی و تحلیل قرار دهد. چنین برداشت می‌شود که دخالت‌دهی حجم زیادی از امتناع‌ها در کتاب یادشده، به روشنگری ذهنیت مخاطب نسبت به موضوعات دینی و غیر دینی انجامیده است. دیگر اینکه بررسی نشان از آن دارد که امتناع در خطبه قاصعه بیشترین بسامد را دارد و امتناع الهی بیشتر در ارتباط با پیامبران و بیت الله الحرام است.

کلیدواژه‌ها: نهج‌البلاغه، امتناع، استدلال ورزی، حکمت، انتفاء.

* دانشیار گروه زبان و ادبیات عربی، دانشگاه کاشان (نویسنده مسئول)، najafi.ivaki@yahoo.com

** دانشجوی دکتری زبان و ادبیات عربی، دانشگاه کاشان، marziehkadkhodaie@yahoo.com